

## يوسف وقاص: بطل روايتي الجديدة مهاجر مغربي

كاتب سوري مهاجر أعماله الروائية وترجماته جسر بين الثقافتين العربية والإيطالية



رواية بثلاثة أبطال لكل منهم مصيره المختلف

درجاً على المقولة الشهيرة «كل الطرق تؤدي إلى روما»، واخترت بدلاً منها برلين؟ السبب واضح، وهو لأن مجموعة كبيرة من السوريين وصلوا إلى برلين ما بين عامي 2015 و2016 بعد أن قطعوا مسافات طويلة عبر بلغاريا وهنغاريا وصربيا وسلوفينيا وكرواتيا والنمسا وصولاً إلى برلين، التي اخترتها أيضاً بسبب العدد الهائل من النازحين واللاجئين الذين وصلوا إليها، وأسماها الرواية «في الطريق إلى برلين»، أيضاً استحياء من «الطريق إلى دمشق»، أي عندما ضرب البرق حوارياً السيد المسيح بولص وهو في طريقه إلى دمشق، فانبثق فيه، كما تقول الأسطورة، نور الإيمان.

● **الجديد:** لماذا قررت أن تكتب الرواية باللغة الإيطالية؟

■ **يوسف وقاص:** قراري الكتابة باللغة الإيطالية لا يعود إلى عام 2016 وإنما إلى عام 1996، لأنني شعرت في تلك اللحظة بأن المهاجرين مهمشون بالفعل، فاخترت أن أتحدث عن بطلي، وهو شخصية شاب مغربي، بلغة من همشوه وأقصوه، وهي القصة القصيرة التي بعثتها إلى مسابقة تعني باب المهاجرين، وفزت بها بجائزة لجنة التحكيم الخاصة.

● **الجديد:** بالإمكان اعتبارك كاتباً إيطالياً بكل المعاني، تعني بأب المهاجرين وبأوضاعهم في إيطاليا وفي أوروبا، فماذا تعتبر نفسك أنت؟

■ **يوسف وقاص:** يعتبرني الإيطاليون كاتباً إيطالياً من أصول سورية، ورغم أنني لم أنسل الجنسية الإيطالية بعد، لكنني أضع في خانة الكتاب الإيطاليين، وذلك لأن جميع كتاباتي هي بالإيطالية؛ وتتناول جميع كتاباتي حياة المهاجرين في إيطاليا، فأبطلني من أصول رومانية وبولندية وعربية وأميركية لاتينية ومن بلدان الهجرة الأخرى، وغالباً ما أسأل عن التنوع الواسع لشخصياتي الكثيرة ومتعددة المشارب، فأجيب بأنني لم اختر هذا التنوع بالصدفة أو عن عبث، بل عبر المعاشية والتجاور مع الكثيرين من هؤلاء الناس لأتعرف على تفاصيل حياتهم ومعاناتهم العديدة، سواء في الضواحي التي يعيشون فيها أو في المصانع المهجورة التي اتخذوها سكناً لمجموع عديدة منهم. لم أرغب أبداً في الكتابة عملاً أجهل.

تمز بها، ففي فصل من الفصول أعود إلى طفولة «عادل» لنجدته، لدى وصوله من فلسطين برفقة عائلته، وهو يحمل اسم «كفاح»، وحين تفقد العائلة أي أمل في الكفاح وفي فلسطين، نجده يحمل اسم «عادل»، وليس «كفاح-عادل» إلا أنا الأخرى «لميلاد»، لكن لا يمكن فك رموز هذا التداخل إلا عبر إكمال القراءة حتى النهاية».

التاريخ معلّم نافذ

يوسف وقاص ماخوذة بالتاريخ وموله فيه، وثمة للتاريخ حضور واسع في أعماله، وينحدر التاريخ القديم إلى مكون أساسي في تلك الأعمال، تاليفاً كان أو ترجمة، وبعد أن أنجز ترجمة «بينوكيو» -الصبى الخشبي- للكتاب الإيطالي كارلو كولودي، انتهى قبل فترة من ترجمة «رسائل حي بن يقظان» لابن طفيل إلى الإيطالية، ويعكف الآن على ترجمة رواية «القدس المحررة» لخورخو تاسو.

● **الجديد:** ما السبب في اهتمامك الكبير بالتاريخ؟ ما الذي تجده فيه خاصاً وأنت تعاملت مع أحداث روايتك وشخصياتها من منطلق الواقعية السحرية والسخرية السوداء؟

■ **يوسف وقاص:** إن أصرتي مع التاريخ إلى طفولتي، حيث كنت أعيش في بلدة متاخمة للحدود السورية التركية تبعد عن تركيا مسافة ثلاثة كيلومترات فحسب. وقد أثار اهتمامي تنوع الإثنيات في تلك البقعة من الأرض، ودفعني إلى الاهتمام بالتاريخ القديم والتعمق فيه، وصار ذلك الاهتمام مع الزمن، فناة مطلقاً بأن من يجهد تاريخه لن يكون له حاضر أو مستقبل. والتاريخ معلم حقيقي وناقد، وليس بالضرورة أن تكرر ما حدث في التاريخ، بل أن تتعلم من دروسه، وليس ما يحدث اليوم إلا تأكيد واقعي على مقدار جهلنا بالتاريخ.

هل غيرت الطرق مساراتها؟

● **الجديد:** لكن لماذا قررت أن تبعد «ميلاد» و«نادية» إلى برلين بالتحديد؟

■ **يوسف وقاص:** لقد وجّه هذا السؤال إليّ من أكثر من قارئ، ومن الإيطاليين بالذات، وسُئلت عن سبب عدم اختياري لروما،

أبطلني من أصول رومانية وبولندية وعربية وأميركية لاتينية ومن بلدان الهجرة الأخرى، وغالباً ما أسأل عن التنوع الواسع لشخصياتي الكثيرة ومتعددة المشارب



الشخصية من أي إسقاط قومي أو طائفي أو عرقي وسياسي، ولكي تكون الشخصية ذات بعد وعمق تاريخيين؛ اخترت حديثين تاريخيين هامين في العلاقة ما بين الغرب والعالم العربي والإسلام: الحدث الأول هو معركة لي بانو، التي كانت حاسمة للغاية، فقد كانت تلك المرة الأولى التي اتحدت فيها الرابطة الأوروبية، رغم اختلافاتها وتضاداتها، وهاجمت الأسطول العثماني معاً، وبلغت الرابطة الأوروبية هدفها المنشود بعد فترة بالقضاء على الإمبراطورية العثمانية، فقد نُجرت تماماً بعد ذلك حين من الوقت إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. أما المعركة الأخرى، فهي معركة «البرموك» وظهور القائد خالد بن الوليد، وتشكل هذه المعركة خلفية هامة في مواجهة ما بين الغرب والعالم العربي، فقد كانت أول انتصار للعرب بالمعركة وغيرت خريطة الشرق الأوسط، ولم يكن ذلك التغيير جغرافياً فحسب، بل ثقافياً ولغوياً أيضاً، فقد أصبحت العربية، للمرة الأولى في تاريخ المنطقة، لغة رسمية في بلاد الشام بعد ما كانت تتداول فيها لغات عدة مثل الآرامية واليونانية والرومانية».

أبطالاً مأساويون ووطنٌ جديد

ثلاثة هم أبطال الرواية الرئيسية، ولكل منهم مساره الخاص، ولدى الثلاثة هدف واضح، «نعم» يقول يوسف وقاص، ويضيف «لدى الثلاثة هدف واحد، وهو ميلاد وطن جديد يضمن الحقوق للجميع»، ويسعى كل منهم لتحقيقه على طريقته.

ويرغم أن الكاتب اختار لشخصياته أسماءً حيادية دون أي ظل للطائفة أو الدين أو الانتماء العرقي، فإن تلك الأسماء تحمل في طياتها تناقضات جوهرية، ف«ميلاد» مهدد بالموت، و«عادل» ما هو إلا نموذج للعسف والانتهاك و«إسماعيل» الذي يمثل في الأسطورة نموذج الضحية، ما هو في الرواية إلا جاد، أسماءً تناقض كنهها ومرجعياتها، «نعم هذا هو الحال بالضبط»، يقول يوسف وقاص، مضيفاً «ولم يأت ذلك بالصدفة، ولقد امتعنت في التفكير في كل اسم قبل تنفيذته على الشخصية، لكن حتى هذه الأسماء تتغير وتتلبس الشخصيات أسماءً أخرى حسب الظروف التي

يحلو للكاتب والمترجم السوري عماد الأحمد أن يُناديه بكُنية «عمي أبوحسن»، ليس حبا به فحسب، بل أيضاً لما تبته نظرتة من هيبة وإباء حين يظهر في مجلس ما؛ الكاتب والمترجم السوري يوسف وقاص قليل الكلام، تأقّب النظرة وثأبت الملامح، وقد يوحي ذلك للوهلة الأولى بأنه شديد متراساً يحتسي خلفه ليحول دون اقتحام الآخرين لعالمه، لكن، ما أن تتحدث معه، حتى ولو كان للمرة الأولى، حتى تكتشف أن وراء ذلك الثبات قلباً طرياً، وما «التمترس» ذلك إلا نتج زاهد لأهوال اختزنها في قلبه وعقله، كالملايين من السوريين والعراقيين، وغيرهم من البشر الذين داستهم أهوال الحرب والصراعات والعنف، ومزّ الموت بجوارهم مرّات ومرّات.

الوصول إلى برلين «ليست الرواية عن الحرب ولا عن أحداثها» يقول يوسف وقاص «بل هي إطار كامل للحرب، وليس لتفاصيلها أو أحداثها».

ويضيف «هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن بلدي سوريا في عمل كتب بالإيطالية، بعكس جميع كتاباتي بالإيطالية والتي لم أتطرق فيها إلى سوريا أبداً. لكنني فعلت ذلك هذه المرة، بعد أن عشنا فترة الحرب في حلب، وكانت فترة عصيبة للغاية، ليس لي فحسب، بل لجميع سكان البلد، من نقص في الضروريات والمواد الغذائية والمحروقات وغيرها، وبالذات من غياب شبيه كامل للأمن، إذ لم يكن بإمكانك أن تتكهن متى ستصاب برصاصة أو تسقط قذيفة على منزلك أو تنفجر عبوة إلى جوارك أثناء المرور في الشارع، وكل هذا كان يجعل الإنسان يشعر بالخطر في أي مكان، حتى لو كان متحصناً داخل جدران بيته».

ويقول الكاتب «لقد كتبتها عندما عدت إلى إيطاليا في عام 2016». ويضيف «فكرت بأن أفضل وسيلة للحديث عن تلك المأساة التي تعيشها هذه المجموعة والوصول إلى عقل القارئ هو استخدام تقنيتي الواقعية السحرية والسخرية السوداء، لأنني كنت مقتنعاً، منذ البداية، أن بمقدور هاتين التقنيتين إثارة الكثير من الأسئلة، وأكد لي ذلك عدد من الأصدقاء الذين قرأوا الرواية لاحقاً».

ما يُميّز «الطريق إلى برلين» هو أن بإمكان القارئ أن ينطلق من أي فصل من الرواية وأن يقرأ بمعزل عن سابقة أو الذي يليه «على أن جميع الفصول مترابطة فيما بينها بشكل وثيق».

«بطل الرواية هو ميلاد بن كنعان»، يقول يوسف وقاص، ويضيف «وقد اخترت هذا الاسم الحيادي بتعمد لأحرر

عرفان رشيد  
كاتب عراقي



يوسف وقاص، جاء إلى الرواية المكتوبة بالإيطالية بالصدفة، ولضروقات يشعر بها المهاجر المنزوع من أي حقوق، «كنت في يوم من الأيام أشاهد برنامجاً تبثه القناة الحكومية الثالثة (يسارية الميول)، تضمن دعوة إلى الكتاب الأجانب المقيمين في إيطاليا، أو ممن يعتقدون بامتلاك ملكة الكتابة، لإنجاز قصص قصيرة وإرسالها للمشاركة في مسابقة بهذا الخصوص، فتناولت دفعتي في الحال وبدات بالكتابة، دون أن أعلم إلى أين ساصل، وأن تلك الخطوة ستكون بداية لنشاطي الأدبي باللغة الإيطالية، وعرضت القصة على بعض الأصدقاء فأنشأ عليها، وأرسلتها إلى المسابقة؛ حيث فازت بالجائزة الخاصة للجنة التحكيم. كانت هذه الجائزة حافزاً كبيراً لي لمتابعة كتابة قصص وتاملات عن حياة المهاجرين، حيث تكلفت بمنحي ميدالية استحقاق ثقافي من قبل رئيس الجمهورية في عام 1998».

الطريف في الأمر هو أن يوسف وقاص، ويرغم كونه مترجماً محترفاً أنجز الكثير من الأعمال المترجمة من الإيطالية إلى العربية، وحالياً من العربية إلى الإيطالية، مثل رسالة «حي بن يقظان» لابن طفيل التي انتهى من ترجمتها منذ فترة قصيرة، يكتب رواياته وقصصه بالإيطالية مباشرة، وهو يتردد حتى الآن في ترجمة تلك الأعمال إلى العربية بنفسه؛

وقد صدرت لوقاص في الأونة الأخيرة رواية «الطريق إلى برلين»، يروي فيها يوميات مجموعة من السوريين الفارين من أتون الحرب ويسعون إلى